مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 09 عدد: 01 السنة: 2020
ص: 611 - 626 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

الشواهد القرآنيّة عند الجاحظ (ت 255ه) من خلال البيان والتّبيين.

The Quranic Signs with El-Djahed (D 255Ah) through El-Bayan and El-Tabyin

ط.د. **نصيرة بوجلول**،[1] * أ.د. **عبد الغفار بن نعمية**.[2]
Boudjelloul Nacira[1] Abdelghaffar Bennaima[2]
جامعة وهران 01 (أحمد بن بلة)، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية
University of Oran 1 - Algeria
boudjellouln@gmail.com

تاريخ الإرسال2019/01/24	تاريخ القبول: 2019/10/18	تاريخ النشر: 2020/03/15

ملخص البحث

حازت الشواهد القرآنيّة عند المؤلفين القدامى اهتماماً منقطع النظير، كونها أدلة تجعل الكلام أكثر دقةً وتوثيقاً، خاصة إذا تعلق الأمر بالقرآن الكريم فهو المنزل باللّغة العربيّة والمصدر الأول من مصادر التشريع، ومن بين من وظّف هذا المنهج في الاستدلال الجاحظ، والتي تعكس حجم اهتمامه وتمكّنه في هذا الباب، وفي هذا الإطار يأتي هذا البحث لدراسة الشواهد القرآنيّة التي وظّفها، ومنهجه في الاستدلال القرآني من خلال كتابه البيان والتّبيين.

الكلمات المفتاحيّة: الجاحظ؛ شواهد؛ القرآن الكريم؛ منهج.

Abstract:

The Quranic signs of the ancient authors possessed unprecedented attention, because they make speech more accurate and documented, especially when it comes to the holy Quran .It was revealed in Arabic and the first source of legislation, among those who appointed this method in reasoningwas El-Djahed, which reflects his immense interest and his full control of this field. In this context this search comes to study the Quranic signs which he employed, and his method in the Quranic reasoning through his book El-Bayan and El-Tabyin.

Keywords: El-Djahed, Signs, HolyQuran ,Method.

* نصيرة بوجلول. boudjellouln@gmail.com

مقدمة:

أخذت كتب الدراسات القرآنيّة والأدبيّة والبلاغيّة واللّغوية أنماطاً مختلفة في مناهجها، لاختلاف مصادر الاستشهاد بين القرآن الكريم، والحديث النّبوي الشريف، وكلام العرب شِعراً ونثراً، وقد استعمل المؤلفون ذلك كل بحسب تمكنّه من اللّغة العربيّة وبحورها، ومن هؤلاء الذين سبروا أغوارها وجعلوا لكلامهم ما يُعززه أكثر نجد الجاحظ الذي خلف للمكتبة الإسلاميّة تراثاً يشهد له على مكانته العلميّة، ولو أنّه ألف كتاب البيان والتّبيين ما نقص من مكانته شيء ولكان أغنى المكتبة العربيّة.

بالرجوع إلى هذا الكتاب وتصفحه الذي يشهد تنوعاً استدلالياً، يظهر الاهتمام الكبير للجاحظ بالشواهد، في مقدمتها الاستشهاد بكلام الله تعالى، إذ شهدت هذه الأخيرة عناية فائقة في مؤلَفه هذا، ومن هذا المنطلق وقع الاختيار على هذا الموضوع، واقتضى البحث دراسة مكونة من أربعة عناصر: العنصر الأوّل تناول ترجمة الجاحظ، والثّاني اهتم بكتابه البيان والتّبيين ومنهجه فيه، والثّالث ناقش الشواهد وأنواعها، والعنصر الرابع والأخير كان عن توظيفه للشاهد القرآني و منهجه في الاستشهاد بالقرآن الكريم.

يمكننا من خلال هذه الدراسة الاطلاع على مدى تمكن الجاحظ من استحضار أدلة للكلام من القرآن الكريم، وقدرته البيانيّة في توظيف الشاهد القرآني والوفاء بالمعاني ورعاية الألفاظ.

أوّلا: ترجمة الجاحظ:

1- اسمه ونسبه:

هو أبو عَمْرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي[1] المعروف بالجاحظ، البصري،[2] المعتزلي،[3] سُمي بالجاحظ لأنّ عينيه كانتا جاحظتين، وكان يُقال له أيضاً الحدقي،[4] يُقال بأنّه عالم وأديب.[5]

2- مولده:

وُلد الجاحظ بالبصرة[6] قيل حوالي 776، 868 أو 869 م،[7] وقيل سنة 155هـ،[8] لكن إذا تم الأخذ بالقول القائل أنّ وفاته كانت سنة 255هـ، وسنّه أنذاك ست وتسعون سنة،[9] يمكن تقدير ولادته سنة 159هـ.

3- شيوخه:

تعلم الجاحظ العلوم على شيوخ كُثر من بينهم: أبو إسحاق إبراهيم بن سيار البلخي المعروف بالنّظّام[10] (ت 231هـ) يزيد بن هارون (ت 206هـ)، وأبي يوسف القاضي (ت 182هـ).[11]

4- تلاميذه:

جمع الجاحظ حوله عدداً كبيراً من التلاميذ الذين استفادوا من علمه الغزير، ومن هؤلاء يُذكر: يموت بن المزرّع (ت 304هـ)، محمد بن عبد الله بن أبي الدلهاث، ومحمد بن يزيد النحويّ (286هـ).[12]

5- مؤلفاته:

ترك الجاحظ تراثاً ضخماً للمكتبة العربيّة الإسلاميّة، ومن أهمها على سبيل المثال لا الحصر: البخلاء، البرصان والعرجان والعميان والحولان، البغال، البيان والتّبيين الذي أهداه إلى أحمد بن أبي داود (ت 316هـ)،[13] التاج في أخلاق الملوك، التبصرة بالتّجارة في وصف ما يستظرف في البلدان، الرسائل الأدبيّة، المحاسن والأضداد، المختار في الرد على النصارى، وكتاب الحيوان الذي أهداه إلى محمد بن عبد الملك (ت 233هـ).[14]

6- وفاته:

توفي الجاحظ في شهر محرم سنة 255هـ بالبصرة،[15] وقيل سنة 250هـ،[16] وقد اختُلف في سبب وفاته بين من يرد ذلك لإصابته بمرض الفلج،[17] وبين ما يجعل سقوط المكتبة عليه سببا في ذلك.[18]

ثانياً: كتاب البيان والتّبيين ومنهجه.

يُعد كتاب الجاحظ من بين الكتب التي جمعت بين عدّة فنون، صعبة المنال، والتي كانت سبباً قوياً في النهوض بحركة التأليف في الدراسات القرآنيّة عموماً والبلاغيّة خصوصاً، من ذلك مثلاً يوقف على العسكري (ت 395هـ) يشير إلى أنّ سبب تأليف كتابه الصناعتين كان بدافع معالجة جوانب النقص التي لحقت بكتاب البيان والتّبيين، وفي السياق يقول:" وكان أكبرها وأشهرها كتاب البيان والتّبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، وهو كثير الفوائد، جمّ المنافع، لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة والفقر اللطيفة، والخطب الرائعة، والأخبار البارعة، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء، وما نبّه عليه من مقاديرهم في البلاغة والخطابة، وغير ذلك من فنونه المختارة، ونعوته المستحسنة، إلاّ أنّ الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة في

تضاعيفه، ومنتشرة في أثنائه، فهي ضالة بين الأمثلة لا توجد إلاّ بالتأمل الطويل، والتصفّح الكثير."[19]

وعلى هذا الأساس رُدت مباحث الكتاب وقضاياه إلى ضروب هي: " البيان والبلاغة، القواعد البلاغيّة، القول في مذهب الوسط، الخطابة، الشّعر، الأسجاع، نماذج من الوصايا والرسائل، طائفة من كلام النساك[20] والقُصاص وأخبارهم، عرض لبعض كلام النُوكى[21] والحمقى ونوادرهم، ضروب من الاختيارات البلاغيّة."[22]

لم يتّبع الجاحظ في كتابه البيان والتّبيين منهجاً واحداً، بل كان كثير الاستطراد في المسائل التي يتعرض لها، وقد يظهر هذا من أول إطلالة على الكتاب كما أنّ محقق الكتاب يشهد على هذا بقوله:" إنّ دأب الجاحظ في تأليفه أن يرسل نفسه على سجيتّها، فهو لا يتقيد بنظام محكم يترّسمه، ولا يلتزم نهجاً مستقيماً يحذوه، ولذلك تراه يبدأ الكلام في قضية من القضايا، ثمّ يدعها في أثناء ذلك ليدخل في قضية أخرى، ثمّ يعود إلى ما أسلف من قبل."[23]

كما أنّ الجاحظ يعترف بهذا فلا ينسى أن يُذكر القارئ في بعض المرات أنّ هذا الباب الحق أن يكون في أوّل هذا الكتاب، ولكن أخّره لبعض التدبير كما يقول.[24]

وبالإطّلاع على الكتاب يظهر أنّ المنهج الغالب فيه هو كثرة الشواهد بمصادرها المتعددة لتشمل: القرآن الكريم، السّنة النّبوية، وكلام العرب شِعراً ونثراً، والتي عرفت تفاوتاً فيما بينها من حيث حظورها في الكتاب، إضافة إلى هذا فقد وجد الاستطراد طريقه في بعض الأبواب دون بعض، مع الاحتفاظ بفوائده العديدة.

ثالثاً: تعريف الشواهد وأنواعها:

1- تعريف الشاهد:

أ- لغةً: جاء في لسان العرب أنّ الشاهد هو: " العالم الذي يُبيّن ما علمه، شهد شهادة، ومنه قوله تعالى: ﴿ **شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ**﴾ [المائدة: 106]، ثمّ قال: "والشهادة خبر قاطع"، وقال: قال أبو العباس: شهد الله، بيّن الله وأظهر، وشهد الشاهد عند الحاكم أي بيّن ما يعلمه وأظهره."[25]

ب- أما اصطلاحاً: فقد عُرّف على أنّه:" الدليل، أي ما يُذكر لإثبات قاعدة كليّة من كتاب أو سنّة، أو من كلام عربي فصيح."[26]

أما الشواهد القرآنيّة فيُقصد بها تلك الآيات القرآنيّة التي توصل بها الفقهاء إلى استخلاص الأحكام، والتدليل عليها، والتي اعتمد عليها اللّغويون العرب في أثناء تقعيد اللّغة، وسن قوانينها، حيث يمثل القرآن الكريم اللّغة المثاليّة الرفيعة التي فهمها الجميع، وأوثق نص لغوي في العربيّة.[27]

وبهذان التعريفان يمكن أن يُفهم ذلك الاقتصار على تخصيص الشاهد بالفقه واللّغة فقط، لكن ينبغي التنبيه إلى أنّ الشاهد كما يُستعمل في النّحو والفقه واللّغة، فإنّه كذلك يستعين به المفسر، والأديب، والأصوليّ، والبلاغيّ، إلى غير ذلك.

2 – مصادر الاستشهاد:

أ– القرآن الكريم:

لما كان القرآن الكريم هو كتاب الله تعالى الذي: ﴿ **لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾ [فصلت: 42]، فقد أجمع العلماء أيضاً على أنّه المصدر الأوّل للّغة العربيّة، وخير ممثل لها، قال الراغب الأصفهاني (ت 502هـ) في كتابه المفردات:" فألفاظ القرآن هي لب كلام العرب وزبدته، وواسطته وكرائمُه، وهي اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم، وإليها مفزع حُذّاق الشُّعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم."[28]

كما قيل عنه أنّه:" كتاب العربيّة الأكبر، ومعجزتها البيانيّة الخالدة ومَثَلُها العالي الذي يجب أن يتّصل به كل عربي أراد أن يكسب ذوقها ويدرك حسها ومزاجها ويستشف أسرارها في البيان وخصائصها في التعبير والأداء."[29]

أما قضية الاستشهاد به وتوظيف آياته فيُشير السّيوطي (ت 911هـ) إلى جواز ذلك بجميع قراءاته قائلاً: " أما القرآن فكل ما ورد أنّه قُرئ به جاز الاحتجاج به في العربيّة سواء كان متواتراً، أم آحاداً، أم شاذاً، وقد أطبق النّاس على الاحتجاج به في العربيّة، إذا لم تخالف قياساً معروفاً، بل ولو خالفته يُحتج بها."[30] كما قيل بأنّ: " كلامه عزّ اسمه أفصح كلام وأبلغه ويجوز الاستشهاد بمتواتره وشاذه."[31]

ثمّ إنّ العلماء لم يختلفوا حول قضية الاستشهاد بالقرآن الكريم بقدر ما اختلفوا حول قضية الاستشهاد بالحديث النّبوي وكلام العرب شِعراً ونثراً.

ب– الحديث النّبوي الشريف:

يأتي كلام النّبي صلى الله عليه سلم بعد كلام الله تعالى قمة في الفصاحة والبلاغة، ورغم ذلك اختلفوا في الاستشهاد به بين الجواز والمنع، فإذا كان ابن مالك (672هـ) يُجوّزه، فإن ابن الضائع (ت 680هـ) وأبو حيان (ت 745هـ) منعاه لأمران:

- أحدهما أنّ الأحاديث لم تُنقل كما سُمعت من النّبي صلى الله عليه وسلم، وإنّما رُويت بالمعنى.
- وثانيهما أنّ أئمة النّحو من المصرَين – الكوفيين والبصريين– لم يحتجوا بشيء منه.[32]

رُد القول الأول بأنّ النقل بالمعنى إنّما كان في الصّدر الأول قبل تدوينه في الكتب، وقبل فساد اللّغة، وغايته تبديل لفظ بلفظ يصحُّ الاحتجاج به، فلا فرق على أنّ اليقين غير شرط، بل الظن كاف.

ورُدّ القول الثّاني بأنّه لا يلزم من عدم استدلالهم بالحديث عدم صحة الاستدلال به، والصواب جواز الاحتجاج بالحديث للنحويّ في ضبط ألفاظه.[33]

ج – كلام العرب شعراً ونثراً:

إنّ الاستشهاد بكلام العرب يرجع إلى عصور الإحتجاج، وهذا ما جاء في كتاب المعجم المفصل في شواهد العربيّة لإميل يعقوب قائلاً:" شواهد العربيّة تعود إلى الشعراء الذين يُحتجّ بلغتهم، أي إلى شعراء عصر الاحتجاج الذي يمتدّ من العصر الجاهليّ حتّى منصف القرن الثّاني الهجري بالنسبة إلى عرب الأمصار، وإلى أواخر القرن الرابع الهجري بالنسبة إلى عرب البوادي."[34] ومن خلال هذا القول يظهر ذلك التباين في المدة الزّمنية مع أنّ اللّغة واحدة بين الأمصار والبوادي وسبب ذللك يرجع إلى أنّ اللحن أكثر ما يظهر ويشيع في الحضر أوّلاً، ثمّ يفشو إلى البادية، ولم يحدد هذا الكلام القبائل التي يصح الاستشهاد بكلامها إنّما ورد على إطلاقه دون تقييد إلاّ بما اختص به من الأمصار والبوادي، وعليه فإنّ القائلين للشّعر على أربع طبقات:

– **الطبقة الأولى**: **الشعراء الجاهليون**: وهم الذين عاشوا في العصر الجاهلي، ولم يدركوا الإسلام كامرئ القيس (80ق هـ/ 545م)، والأعشى (ت 7هـ)، وغيرهم.

– **الطبقة الثانية**: **المخضرمون**: وهم الذين عاشوا في الجاهلية، وأدركوا فترة من حياتهم في الإسلام كلُبيد بن أبي ربيعة (ت 41هـ)، وحسان بن ثابت (ت 54هـ)، وغيرهم.

– **الطبقة الثالثة**: **المتقدمون**، أو الإسلاميون وهم الذين كانوا في صدر الإسلام، كجرير (ت 110هـ)، والفرزدق (ت 110هـ).

– **الطبقة الرابعة: المولّدون**: ويُقال لهم المحدثون، يأتون بعد الطبقة الثالثة كبشّار بن برد (ت 167هـ) وأبي نواس (ت 196هـ).[35]

فالطبقتان الأوليان يستشهد بشعرهما إجماعاً، وأما الثالثة فالصحيح صحة الاستشهاد بكلامها، وأما الرابعة فالصحيح أنّه لا يستشهد بكلامها مطلقاً، وقيل يستشهد بكلام من يوثق به منهم.[36] كما قيل ما وُجد في كتب النّحو والصرف واللّغة من هذه الطبقة فهو على سبيل التمثيل، لا الإستشهاد.[37]

رابعاً: منهجه في الاستشهاد بالقرآن الكريم:

يرى الجاحظ أنّ للشواهد أهمية كبيرة في العلم والمعرفة، فها هو يشير عموماً إلى ذلك قائلاً: "ومدار العلم على الشّاهد والمثَل."[38]

الطرح نفسه يذهب إليه أبو هلال العسكري (ت 295هـ) فيُبيّن حاجة المؤلف إلى الشاهد والمثل والكلمة السائرة قائلاً بأنّه:"...يزيد المنطق تفخيماً ويكسبه قبولاً ويجعل له قدراً في النفوس وحلاوة في الصدور ويدعو القلوب إلى وعيه ويبعثها على حفظه ويأخذها باستعداده لأوقات المذاكرة والاستظهار به أوان المحاولة في ميادين المجادلة والمُصَاولة في حَلَبات المُقاوَلة..."[39]

إنّ السر في أخذ الجاحظ بالشواهد القرآنيّة للتدليل على مباحث كتابه البيان والتّبيين هو أنّ مدار الأمر على البيان والتبيُّن، وعلى الإفهام والتفهّم،[40] قال الله تبارك وتعالى في محكم تنزيله: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ**﴾ [إبراهيم: 04]، أضف إلى ذلك أنّه سبحانه وتعالى ذكر جميل بلائه في تعليم البيان وعظيم نعمته في تقويم اللّسان، فقال: ﴿**الرَّحْمَنُ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ، عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**﴾ [الرّحمن: 01- 04]، وقال تعالى: ﴿**هذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ**﴾ [آل عمران: 138]، ومدح القرآن بالبيان والإفصاح، وبحسن التفصيل والإيضاح، وبجودة الإفهام وحكمة الإبلاغ وسماه فرقاناً كما سمّاه قرآناً،[41] وقال: ﴿ **عَرَبِيٌّ مُبِينٌ**﴾ [النحل: 103]، وقال: ﴿ **وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا**﴾ [طه: 113]، وقال: ﴿ **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ**﴾ [النحل: 89]، وقال: ﴿ **وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا**﴾ [الإسراء: 12].

يبدو وكأنّ الجاحظ مهتم بجمع الآيات القرآنيّة التي جاء فيها ذكر للفظة البيان وما في معناها كالتفصيل، وأنّ بيانه متعلق بنزوله عربياً، حيث نزل في جنس ما برع فيه العرب، مع مراعاة جانب التحدي في ذلك، حيث قال جلّ ثناؤه: ﴿ **قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**﴾ [الإسراء: 88].

وبالتمحيص أكثر في كتابه هذا يتّبين مدى اهتمامه بهذا النوع من الاستشهاد، من بداية كلامه عن العي[42] حيث استشهد بالآية القرآنيّة لما سأل الله عزّ وجلّ موسى بنُ عمران عليه السلام حين بعثه إلى فرعون بإبلاغ رسالته، والإبانة عن حجّته، والإفصاح عن أدلّته، فقال حين ذكر العقدة التي كانت في لسانه والحُبسة التي كانت في بيانه[43]: ﴿ **وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي، يَفْقَهُوا قَوْلِي**﴾ [طه: 27- 28]، ثمّ لا يزال يذكر الآيات القرآنيّة في هذا المقام: ﴿**أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ**﴾ [الزخرف: 52]. وقوله تعالى:﴿**وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي**﴾ [القصص: 34]، وقوله عزّ وجلّ: ﴿ **وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي**﴾ [الشعراء: 13]، حتّى يأتي في الأخير ليقرر أنّ الله تعالى حلّ تلك العُقدة وأطلق ذلك التعقيد والحُبسة،[44] وذلك في قوله تعالى:﴿ **رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي، وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي، وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي، وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي، هَارُونَ أَخِي، اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي، وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي**﴾ [طه: 25- 32]، إلى قوله سبحانه وتعالى:﴿ **قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى** ﴾ [طه: 36].

وهذا يُلمح كذلك إلى أنّه كما يهتم بالآيات القرآنية التي فيها لفظ واحد وما في معناه، فإنّه لم يغفل الآيات القرآنيّة التي تضم قصة واحدة أو موضوعاً واحداً.

تذكيراً بما سبق من اهتمام الجاحظ بجمع الآيات القرآنيّة، فإنّه يذكر في باب البيان وأدواته الخمس التي من بينها الخطّ، أنّ الله تعالى ذكر في كتابه فضيلة الخطّ والإنعام بمنافع الكتاب، قائلاً سبحانه وتعالى: ﴿ **اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾ [العلق:03- 05]، وأقسم به في كتابه المنزل على نبيّه المرسل، حيث قال: ﴿ **ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ**﴾ [القلم: 01]، ولذلك قالوا: القلم أحد اللّسانين، كما قالوا: قلّة العيال أحد اليَسارَين، وقالوا: القلم أبقى أثراً، واللّسان أكثر هذَراً.[45]

يحذو كثيراً من الأدباء حذو الجاحظ في هذه المسألة فهذا الصولي (ت 335هـ) في كتابه أدب الكاتب عند حديثه عن فضل الكتابة يستدل بالآيتين اللتان استحضرهما الجاحظ في الأدوات، مضيفاً الآيات التي احتوت على الكُتاب،[46] قال جلّ وعلا: ﴿ **وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ، كِرَامًا كَاتِبِينَ، يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ** ﴾ [الإنفطار: 10- 12]، وقال: ﴿ **بِأَيْدِي سَفَرَةٍ، كِرَامٍ بَرَرَةٍ**﴾ [عبس: 15- 16].

أما أبو هلال العسكري (ت 395هـ) فيُلاحظ عليه أنّه يضيف مصدراً آخر من مصادر الاستشهاد في هذا الباب حيث يذكر إلى جانب الآية القرآنيّة أبياتاً شعريّة[47] فيقول:

الكَتْبُ عِقْدُ شوارِدِ الكَلِمِ والخَطُّ خَيْطُ فَرَائِدِ.
بالخطِّ نُظِّم كُلُّ مُنْتَشِرٍ مَنْهَا وفُصِّلَ كُلُّ مُنْتَظِمِ.[48]

ينتقل الجاحظ إلى هذا الصنف من الاستشهاد[49] لكن في هذه المرة لا يكتفي بذكر الآية القرآنيّة إلى جانب البيت الشِعري فحسب إنّما يشرح الآية بما ورد فيه، ومثال هذا ما ورد عند حديثه عن الأصوات، في قوله عزّ وجلّ: ﴿ **وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً**﴾ [الأنفال: 35]. في هذه الآية يقف الجاحظ على لفظتين الأولى: لفظة التصدية وهي التصفيق، والثّانيّة المكاء وهي الصّفير أو شبيه بالصّفير، ولهذه اللّفظتين يستشهد الجاحظ ببيت شعري،[50] وهو ما نجده كذلك عند الطبري (ت 310هـ) في تفسيره شرحاً وتمثيلاً.[51]

يلجأ الجاحظ أحياناً إلى بيان الفرق بين ما ورد في القرآن الكريم وما ورد في لغة العرب، وهذا إنّما يوحي بأنّه كان ملماً باللّغة العربيّة، مثال ذلك كلمة المعاذير بين وقوعها في الشِّعر والقرآن الكريم.

لا أَعرفنّكَ إن أرسلتُ قافيةً تُلقِي المعاذير إن لم تنفع العِذَرُ.
إنّ السّعيد له في غيره عظَةٌ وفي التّجارب تحكيمٌ ومُعتَبَرٌ.[52]

يقول: " ومعنى المعاذير هنا على غير معنى قول الله تبارك وتعالى في القرآن: ﴿ **بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ، وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ** ﴾ [القيامة: 14- 15]. والمعاذير ها هنا: السُّتور[53]."[54] وهذا التّفسير نجده كذلك عند الزّجّاج (ت 311هـ) في كتابه معاني القرآن وإعرابه.[55] أما المعاذير في البيت الشّعري فيُقصد بها الحُجج.[56]

مما يُحسب للجاحظ كذلك أنّه يقدم أحياناً مضمون تفسير نبوي للآيات القرآنيّة دون الإشارة إلى ذلك، كما يرجع إلى الأصل اللّغوي للفظة، ومثال ذلك ما أورده في قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُنَ، وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ**﴾ [الماعون: 06- 07]. فسر لفظ الماعون على أنّه: الماء والنّار، والملح، والكلأ.[57]

وجاء عند ابن جرير الطبري (ت 310هـ) بأنّ ﴿**وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ**﴾ يمنعون النّاس منافع ما عندهم، ثمّ قال بأنّ أصل الماعون من كل شيء منفعته، يُقال للماء الذي ينزل من السحاب ماعونه.[58] أما الثّعالبي (ت 876هـ) فإنّه أورد في تفسير الآية حديثاً عن النّبي صلى الله عليه وسلم يشمل قول الجاحظ، قال:" وسُئل النّبيّ صلى الله عليه وسلم: ما الشيء الذي لا يحل منعه فقال: الماء والنّار، والملح[59]." [60]

وعن رجل من المهاجرين من أصحاب النّبيّ صلى الله عليه وسلم قال: " غزوت مع النّبي صلى الله عليه وسلم ثلاثاً أسمعه يقول: المسلمون شركاء في ثلاث: في الكلأ، والماء، والنّار."[61]

لا يفوت الجاحظ في بعض المرات أن يشير إلى القراءات القرآنيّة دون أن يذكر من قرأ بها، كما يكتفي بذكر واحدة دون غيرها، وهذا ما ورد عنده فعلاً إذ قال: "... وسمع أعرابيّ رجلاً يقرأ ﴿**وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ، تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ**﴾ [القمر: 13- 14]. قالها بفتح الكاف- يعنى لفظة كُفِرَ- فقال الأعرابيّ: لا يكون، فقرأها عليه بضم الكاف وكسر الفاء، فقال الأعرابيّ: يكون."[62]

أما القراءات الأخرى لها فقد قرأ مَسْلَمَةُ بن مُحَارِب: بإسكان الفاء خُفِّفَ فُعْلَ، وقرأ زيد رُومَانَ وقتادة وعيسى: كَفَرَ مبنيّاً للفاعل.[63] والظاهر أنّ ذِكر الجاحظ لهذه القراءة والاقتصار عليها دون غيرها يرجع ربما إلى أنّها قراءة الجمهور، مع الإشارة إلى أنّ إيراد القراءات قليل عنده، وذلك ربما يُعبر في الأخير عن موقفه من الاستشهاد بالقراءات القرآنيّة.

زيادة على هذا فقد كان الجاحظ على دراية بأقوال المفسرين في الآية القرآنيّة، سارداً بعضاً من أقوالهم، بتصريح بأسمائهم أحياناً، وغيابها أحياناً أخرى، من ذلك ما ورد في قوله تعالى: ﴿ **فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى**﴾ [طه: 12]. قال: " قال بعض المفسّرين: كانت من جلد غير ذكيّ، وقال الزُّبيريّ: ليس كما قال، بل أعلمه حقّ المقام الشريف، والمدخل الكريم، ألا ترى أنّ النّاس إذا دخلوا إلى الملوك ينزعون نعالهم خارجاً."[64]

مما يُلاحظ على الجاحظ في بعض المرات أنّه يرد ويُعقّب كلما سمحت له الفرصة على من سبقه، كأبي عبيدة (ت 208هـ)، حيث رد القول الذي أورده في تفسير قوله تعالى: ﴿**وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى** ﴾ [النجم: 51]، قائلاً: " وكان أبو عبيدة يتأوّل قوله: ﴿**وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى** ﴾ [النجم: 51]، أنّ ذلك إنّما وقع على الأكثر، وعلى الجمهور الأكبر، وهذا التأويل أخرجه من أبي عبيدة سوء الرأي في القوم، وليس له أن يجيء إلى خبر عام مرسل غير مقيّد، وخبر مطلق غير مستثنى منه، فيجعله خاصاً كالمستثني منه، وأي شيء بقي لطاعن أو متأوّل بعد قوله : ﴿ **فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ**﴾ [الحاقة: 08]. فكيف يقول ذلك إذا كنّا نحن قد نرى منهم في كل حيّ باقية، معاذ الله من ذلك."[65]

لا يختلف كلام الجاحظ هذا عن أقوال المفسرين بل يشترك فيه معهم من بينهم الفخر الرّازي (ت 606هـ) في كتابه مفاتيح الغيب،[66] وابن كثير (ت 774هـ) في كتابه تفسير القرآن العظيم.[67]

كما لا يُنسى للجاحظ أنّه رد على الشعوبيّة[68] التي طعنت في خطباء العرب فقد خصص لها باباً مستشهداً في الحديث عنها وعن منافعها بالقرآن الكريم وبمنثور القول ومنظومه.[69]

قد يستدل الجاحظ أحياناً بالآية نفسها في أكثر من موضع كقوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ**﴾ [إبراهيم: 04]، والتي استشهد بها عند حديثه عن العي[70] فتجده كذلك أنّه استحضرها عند حديثه عن أصل العرب ولغتهم.[71]

تجدر الإشارة في نهاية هذا إلى أنّه بالرغم مما يُذكر للجاحظ من فضل في باب الاستشهاد بالقرآن الكريم إلاّ أنّ هذا لا يعني أن جميع أبواب الكتاب تضمنت هذا، بل هناك أبواباً خلت تماماً من ذلك مثل :" ذكر ما قالوا في مديح اللّسان بالشّعر الموزون واللّفظ المنثور، وما جاء في الأثر وصحّ به الخبر."[72] وقد أضاف باب آخر تابع له لا يذكر فيه ولا آية قرآنيّة.[73]

خاتمة:

في الختام يمكن القول أنّ مدار الكلام عند الجاحظ في البيان والتبيين كان قائما على الشاهد، وهذا المنهج يدل على ثقافة الكاتب، وميله إلى أسلوب الإقناع، خاصة إذا كان الشاهد من القرآن الكريم، الذي أخذ قسطاً وافراً عنده في كتابه هذا، لكن هذا لا يعني أنّ الجاحظ أغفل الشواهد الأخرى كالحديث النّبوي، وأقوال الصحابة، وكلام العرب شِعراً ونثراً، وعدم

الوقوف على هذه الشواهد لا يُنقص من أهميتها شيئاً في بابها، إنّما تم الوقوف على الشواهد القرآنيّة من باب الأولويّة، فهو المصدر الأول من مصادر الاستشهاد، الذي يُحتج به، معتمدين على طريقة الجاحظ ومنهجه في ذلك، فالجاحظ أبدى اهتمامه بالقرآن الكريم في هذا الكتاب مستدلاً ومستشهداً لا مفسراً، فكان يجمع الآيات التي تهتم بموضوع واحد، كما كان أحياناً يشرح، ويذكر القراءات، ويُبيّن الأصل اللّغوي، ويذكر الحديث النّبوي، وقول الصحابي، وقول المفسر، والأديب، ويرد ويُعقّب، وهذا ليس إلاّ غيضاً من فيض من طريقته في الاستدلال فحسب.

وفي الأخير يمكن الإشارة إلى أنّ الجاحظ كان مجتهداً موفقاً إلى حد بعيد في هذا الباب، من الكتاب الذي احتل الصدارة في الدراسات القرآنيّة، والأدبيّة والبلاغيّة.

هوامش:

([1]) نسبة إلى ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة بن خزيمة. يُنظر: ابن خلكان شمس الدّين أحمد بن محمد بن أبي بكر أبو العباس، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، (بيروت)، ب/ ط، ب/ س، ج 03، ص 475.

([2]) المصدر نفسه، ج 03، ص ص 470، 471.

([3]) الذّهبيّ شمس الدّين محمد بن أحمد بن عثمان، سير أعلام النبلاء تحقيق: شُعيب الأنؤوط، صالح السمر مؤسسة الرسالة، ط/ 01- 1402هـ، 1982م، ج 11، ص 526.

([4]) ابن خلكان، المصدر السابق، ج03، ص 471.

([5]) فارس محمد، موسوعة علماء العرب والمسلمين، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر (بيروت)، ط/ 01- 1993م، ص 112.

([6]) الزّركلي خير الدّين، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرّجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين (بيروت، لبنان)، ط/ 15- أيار، مايو 2002م، ج 05، ص 74.

([7]) فارس محمد، المصدر السابق، ص 112.

([8]) ابن الجوزي شمس الدّين أبو المظفر، مرآة الزّمان في تواريخ الأعيان، تحقيق: فادي المغربي، دار الرسالة العالميّة (دمشق)، ج 15، ص 351.

([9]) يُنظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان، ج 03، ص 473.

([10]) المصدر نفسه، ج 03، ص 471.

([11]) السّمعاني عبد الكريم بن محمد بن منصور أبو سعد، الأنساب، تحقيق: عبد الرّحمن بن يحي المعلمي اليماني، ط/ 02- 1400هـ، 1980م، ج 03، ص 155.

([12]) المصدر نفسه، ج 03، ص 155.

([13]) الذّهبيّ، سير أعلام النبلاء، ج 11، ص 529.

([14]) المصدر نفسه، ج 11، ص 529.

([15]) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان، ج 03، ص 474.

([16]) الذّهبيّ، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي (بيروت)، ط/ 01- 1424هـ، 2003م، ج 05، ص 1195. الذّهبيّ، سير أعلام النبلاء، ج 11، ص 527.

([17]) ابن خلكان، المصدر السابق، ج 03، ص 473.

([18]) الزركلي، الأعلام، ج 05، ص 74.

([19]) العسكري الحسن بن عبد الله بن سهل أبو هلال، الصناعتين الكتابة والشّعر، تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، 1419هـ، المكتبة العنصرية (بيروت) 1419هـ، د/ ط، د/ س، ص 04، ص 05.

([20]) النُّسْكُ، والنُّسُك: العبادة والطاعة وكل ما تقرب به إلى الله تعالى، ورجل ناسك: عابد. يُنظر: ابن منظور جمال الدّين محمّد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر (بيروت)، د/ ط، د/ س، ج 10، ص 498.

([21]) الأنوك: الأحمق، وجمعه النّوكى. يُنظر: ابن منظور، لسان العرب، ج 10، ص 501.

([22]) الجاحظ عمرو بن بحر أبو عثمان، البيان والتّبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي (القاهرة)، ط/ 07- 1418هـ، 1998م، ج 01، ص 07.

([23]) المصدر نفسه، ج 01، ص 06.

([24]) المصدر نفسه، ج 01، ص 76.

([25]) ابن منظور، لسان العرب، ج 03، ص 239.

([26]) الأزهري زين الدّين خالد بن عبد الله، شرح التصريح على التوضيح أو التصريح بمضمون التوضيح في النحو، دار الكتب العلميّة (بيروت، لبنان)، / 01- 1421هـ، 2000م، ج 01، ص 14.

([27]) غريب مسعود، الاستشهاد بالشّعر وأهميته، مجلة الأثر، سبتمبر 2016م، العدد 26، ص 193.

([28]) الأصفهاني أبو القاسم الرّاغب الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد سيّد كيلاني، دار المعرفة (بيروت، لبنان)، ب/ ط- ب/ س، ص 06.

([29]) بنت الشاطىء عائشة عبد الرّحمن، التّفسير البياني للقرآن الكريم، دار المعارف، ط/ 07- ب/ س، ج 01، ص 13.

([30]) السّيوطيّ جلال الدّين، الإقتراح في أصول النّحو، تحقيق: عبد الحكيم عطيّة، مراجعة: علاء الدّين عطيّة، دار البيروتي، ط/ 02- 1427هـ، 2006م، ص 39.

([31]) ابن عمر البغدادي عبد القادر، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي (القاهرة)، ط/ 04- 1418هـ، 1997م، ج 01، ص09.

([32]) المرجع نفسه، ج 01، ص 09.

([33]) المرجع نفسه، ج 01، ص ص 09، 10

([34]) بديع يعقوب إيميل، المعجم المفصّل في شواهد اللّغة العربيّة، دار الكتب العلميّة (بيروت، لبنان)، ط/ 01- 1417هـ، 1996م، ج 01، ص 12.

([35]) ابن عمر البغدادي، المرجع السابق، ج 01، ص ص 05، 06.

([36]) المرجع نفسه، ج 01، ص 06.

([37]) الملحم عدنان بن ناصر، الشواهد القرآنيّة في شروح ابن بابشاذ لمقدمته المحسبة دراسة نحويّة، ماجستير بإشراف: د. الحسين النور يوسف، جامعة الملك فيصل، المملكة العربيّة السعوديّة، كلية التربية، قسم اللّغة العربيّة، 1428هـ، ص 38.

([38]) الجاحظ، البيان والتّبيين، ج 01، ص 271.

([39]) العسكري أبو هلال، جمهرة الأمثال، تحقيق: أحمد عبد السلام، أبو هاجر محمد سعيد بن بيوني زغلول، دار الكتب العلميّة (بيروت، لبنان)، ، ط/ 01- 1408هـ، 1988م (بيروت، لبنان)، ج 01، ص 09، ص 10.

([40]) الجاحظ، البيان والتّبيين، ج 01، ص 11.

([41]) المصدر نفسه، ج 01، ص 08.

([42]) العيُّ: خِلاف البيان. يُنظر: الجوهري إسماعيل بن حماد، الصّحاح تاج اللّغة وصحاح العربيّة، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطّار، دار العلم للملايين (بيروت)، ط/ 01- 1376هـ، 1956م (القاهرة)، ط/ 02- 1399هـ، 1979م (بيروت)، ج 06، ص 2442.

([43]) الجاحظ، المصدر السابق، ج 01، ص 07.

([44]) المصدر نفسه، ج 01، ص 08.

([45]) المصدر نفسه، ج 01، ص 79.

([46]) الصولي محمد بن يحيى أبو بكر، أدب الكتاب، تحقيق: محمد بهجة الأثري، المكتبة العربيّة (بغداد)، المطبعة السلفيّة بمصر (القاهرة)، 1341هـ، د/ ط، د/ س، ص ص 21، 23.

([47]) لم يتم الوقوف على هذين البيتين الشعريين في ديوان المعاني لأبي هلال العسكري.

([48]) العسكري أبو هلال، الأوائل، تحقيق: محمّد السيد الوكيل، دار البشير للثّقافة والعلوم الإسلاميّة (طنطا)، (المنصورة)، ط/ 01- 1407هـ، 1987م، ص 85.

([49]) حيث بلغت عنده الشواهد الشّعريّة حوالي ثلاثة ألاف بيت شعري. يُنظر: صبّاغ محمد علي زكي، البلاغة الشعريّة في كتاب البيان والتّبيين للجاحظ، بإشراف: ياسين الأيّوبي، المكتبة العصريّة (صيدا، بيروت)، ط/ 01- 1418هـ، 1998م، ص 341.

([50]) الجاحظ، البيان والتّبيين، ج 01، ص 123.

([51]) الطبري محمد بن جرير أبو جعفر، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق: محمود محمد شاكر، أحمد محمد شاكر، دار ابن الجوزيّ (القاهرة)، ط/ 01- د/ س، ج 13، ص 521.

([52]) وهما أصل للمثل القائل: السّعيد من وُعظ بغيره، وفي البيتين تقديم وتأخير بين الجاحظ وأبي هلال العسكري. يُنظر: الجاحظ، البيان والتّبيين، ج 02، ص 106. العسكري أبو هلال، جمهرة الأمثال، ج 01، ص 418.

([53]) وهي بلغة اليمن. يُنظر: ابن منظور، لسان العرب، ج 04، ص 553.

([54]) الجاحظ، البيان والتّبيين، ج 02، ص 106.

([55]) الزّجّاج إبراهيم بن السّري أبو إسحاق، معاني القرآن وإعرابه، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب (بيروت)، ط/ 01- 1408هـ، 1988م، ج 05، ص 253.

([56]) الجاحظ، المصدر السابق، ج 02، ص 106.

([57]) المصدر نفسه، ج 03، ص 34.

([58]) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج 27، ص 708.

([59]) الثعالبي عبد الرّحمن بن محمد بن مخلوف أبو زيد، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، تحقيق: محمد علي معوض، عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربيّ، مؤسسة التّاريخ العربيّ (بيروت، لبنان)، ط/ 01- 1418هـ، 1997م، ج 05، ص 631.

([60]) المغربي الحسين بن محمد بن سعيد اللاعي، البدرُ التمام شرح بلوغ المرام، تحقيق: علي بن عبد الله الزين، دار هجر، / 01- 1428هـ، 2007م، ج 06، ص 395.

([61]) رواه أبو داود في سننه، تحقيق: محمد محي الدّين عبد الحميد، المكتبة العصريّة (صيدا، بيروت)، ب/ ط، ب/ س، كتاب الإجارة، باب في منع الماء، الحديث رقم 3477، ج 03، ص 278.

([62]) الجاحظ، البيان والتّبيين، ج 02، ص 327.

([63]) أبو حيان الأندلسي محمد بن يوسف، البحر المحيط في التّفسير، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر (بيروت)، ط- 1420هـ، ج 10، ص 40.

([64]) الجاحظ، المصدر السابق، ج 03، ص 110.

([65]) المصدر نفسه، ج 01، ص 188.

([66]) الرّازي فخر الدّين محمد بن عمر أبو عبد الله، تفسير الفخر الرّازي المشتهر بالتّفسير الكبير ومفاتيح الغيب، دار الفكر (لبنان، بيروت)، ج 29، ص 24.

([67]) يُنظر: ابن كثير إسماعيل بن عمر أبو الفداء، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد السّلامة، / 01- 1418هـ، 1997م، ط/ 02- 1420هـ، 1999م، دار طيبة للنشر والتوزيع (المملكة العربيّة السعودية)، ج 07، ص 467.

([68]) وهم الذين يُصغرون شأن العرب ولا يرون لهم فضلاً على غيرهم. يُنظر: الزّمخشريّ جار الله محمود، أساس البلاغة، تحقيق: محمد باسل عيون السّود، دار الكتب العلميّة (بيروت، لبنان)، ج 01، ص 509.

([69]) يُنظر: البيان والتّبيين، الجاحظ، ج 03، ص ص 31، 39.

([70]) يُنظر: المصدر نفسه، ج 01، ص 11.

([71]) يُنظر: المصدر نفسه، ج 03، ص 291.

([72]) المصدر نفسه، ج 01، ص ص 166، 171.

([73]) المصدر نفسه، ج 01، ص ص 172، 175.